



Abu Ali Al-Qali's Poem in Praise of Caliph Abd al-Rahman al-Nasir and the Journey to Al-Andalus: A Historical and Analytical Study

Saleh Ghaith Faraj Al-Daiki *

Department of Arabic Language, Faculty of Education, Bani Waleed University, Libya

قصيدة أبي علي القالي في مدح الخليفة الناصر الأموي وذكر رحلته إلى بلاد الأندلس

صالح غيث فرج الدعكي *
قسم اللغة العربية، كلية التربية، جامعة بني وليد، ليبيا

*Corresponding author: saleh.agy222@gmail.com

Received: July 29, 2026

Accepted: September 18, 2026

Published: September 26, 2026

Abstract:

This study examines the historical and literary journey of Imam Abu Ali Al-Qali from Baghdad to Al-Andalus in the fourth century AH, focusing on his rare poem dedicated to the Umayyad Caliph Abd al-Rahman al-Nasir. It analyzes the motivations behind his migration, the geographical stages of his route, and the socio-political context of the era. The research employs a descriptive-analytical methodology to evaluate the stylistic features of the poem and its alignment with classical Arabic poetic traditions, highlighting the academic reception and status Al-Qali attained in Cordoba.

Keywords: Abu Ali al-Qali, Al-Andalus, Umayyad Caliphate, Classical Poetry, Literary History.

المخلص

تناقش هذه الدراسة الرحلة التاريخية والأدبية للإمام أبي علي القالي من بغداد إلى الأندلس في القرن الرابع الهجري، مسلطة الضوء على قصيدته النادرة في مدح الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر. وتستقرى الورقة الدوافع الكامنة وراء هجرته، والمراحل الجغرافية لخط سير رحلته، والسياق السياسي والاجتماعي لتلك الفترة. وقد اعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي لتقييم السمات الفنية للقصيدة ومدى ارتباطها بتقاليد الشعر العربي القديم، مع إبراز الحفاوة الأكاديمية والمكانة الرفيعة التي نالها القالي في حاضرة قرطبة.

الكلمات المفتاحية: أبو علي القالي، الأندلس، الخلافة الأموية، الشعر الكلاسيكي، التاريخ الأدبي.

احتفظت لنا نسخة دار الكتب المصرية من كتاب (المقصود والممدود) لأبي علي القالي قصيدته التي نظمها في رحلته إلى قرطبة، ولقائه بالخليفة الأموي الناصر لدين الله وولي عهده الحكم المستنصر، وهي وإن خلت من مقدمة معتادة لا ندري أكانت في الأصل موجودة وأهمها التأسخ أم أنها بدون مقدمة أصلاً فقد أحسن ناسخها في إيرادها آخر النسخة، إذ تعد المصدر الوحيد لها إلى الآن، ولا يوجد في غيرها من

المصادر سوى إشارة لها عند ابن خير حيث ذكر في فهرسته – وهو يعدد بعض القصائد التي رواها – سنده لقصيدة القالي هذه، وذكر قبلها وجادته للقصيدة بخط إبراهيم بن حمام بن أحمد قال: وجدت بخط أبي علي إسماعيل بن القاسم... إلخ، دونما ذكر لها، ولا لعدد أبياتها.¹

وأيضاً أحسن محقق الكتاب (كتاب المقصور والممدود) د. أحمد عبد المجيد هريدي بأن أورد القصيدة في مقدمة الكتاب ولم يغفلها²، وإلا لما عرفنا أبياتها أو ما جاء فيها، ولظلت مجهولة، وحبيسة دور الكتب والمخطوطات التي أغلبها لا توجد بها فرس تفصيلية تشير إلى مثل هذه النواذر والدرر.

كذلك فإن وجود القصيدة في آخر المخطوطة بخط الناسخ الكتاب يوحى بأن ناسخها لم يأت بها من غير الكتاب المنسوخ، كما يفعل بعض النساخ بإضافة أشياء في أوراق النسخ سواء على ورقة الغلاف أو في آخرها، ولذلك نرجح أن أبا علي نفسه قد كتبها في أصله آخر كتابه المقصور والممدود، وقد تعاقب النساخ على نسخها مع الكتاب دونما إغفال ولم يشيروا إلى ذلك.

والقصيدة تقع في نيف وثمانين بيتاً من الشعر، يبدأ بذكر تشوق الشاعر للسفر إلى بلاد المغرب ومن ثم العبور للأندلس، وقد أورد جميع المراحل التي نزل بها وأناخ فيها إلى أن يصل إلى غرضه المطلوب، وهو مدح الخليفة الناصر لدين الله الأموي ولي عهده، ومن ثم ذكر نية الإقامة والعيش في قرطبة.

قرطبة حاضرة الأندلس:

في عهد الخليفة الناصر لدين الله الأموي أضحت قرطبة حاضرة جاذبة لكل من أراد العيش في استقرار ودعة، بعد أن عصفت الفتن والحروب بحواضر العالم الإسلامي، بدءاً من بغداد مقر الخلافة العباسية التي كانت تتجاذبها أطراف الصراع المختلفة ونمت فيها العصبية الطائفية والمذهبية والعرقية، و انتهاءً بمصر التي كانت تنهياً لأحداث جسام وتغيير كبير بتوسع الفاطميين نحو الشرق، مما ولد القلق لدى البعض، والخوف والرعب لدى الآخرين، و أضحت شرائح المجتمع تعيش في حيرة ولا تعرف مآل الأوضاع في البلدان التي يقطنونها، أما في الأندلس فقد كان الوضع مختلفاً تماماً، فهي تشهد أوسع عملية نهضة فكرية واجتماعية واقتصادية، بعد أن استقر الحال للأمير عبد الناصر وأمن حدود مملكته من ناحية الشمال، وتوسع جنوباً في بلاد المغرب وشرقاً إلى عموم الجزر الواقعة في بحر الروم، ولم يبق سوى الإعلان عن التغيير السياسي في البلاد وتحويل الأندلس إلى دولة خلافة بدلاً من إمارة، وهذا ما حصل في وقت وجيز، حيث تسمى الأمير عبدالرحمن الناصر باسم الخليفة، ورتب ولاية العهد ونظم شؤون البلاد، وزادت الحياة إشراقاً مما دعى الكثيرين إلى شد الرحال إليها من عموم البلدان الإسلامية للعيش والاستقرار فيها واتخاذها داراً وقراراً، وكان من جملة هؤلاء الإمام أبي علي القالي - رحمه الله -، فقد شد الرحال قاصداً بلاد الأندلس سنة 328 هـ ووصلها في شعبان سنة 330 هـ.

ومع أن المؤرخين ذكروا أن سبب رحلة القالي للأندلس كانت بدعوة من الخليفة الأموي وولي عهده، وجمع من علماء ووجهاء قرطبة حثوه على القدوم إليهم³، غير أننا نعلم ما آلت إليه أحوال بغداد والعراق عامة في تلك الفترة من عدة نواحي، هذا عدا كساد العلم فيها وانتقال كثير من العلماء والأدباء إلى حواضر أخرى طلباً للعيش والاستقرار، فيبدو أن القالي كان أحد أولئك الذين ساءت أحوالهم في بغداد، ومَلَّ من الإقامة فيها، وصادف أن وردت عليه دعوة الخليفة وولي العهد ومن ذكرنا فكانت فرصة سانحة للمغادرة.

ومما يؤيد ما نذهب إليه من سوء أحوال الحواضر الشرقية - وخاصة بغداد - وتقلب أحوال أهلها وتغيير أمزجة الناس ما ذكره ابن سعيد في كتابه المغرب بما مفاده أن أحد أولاد أبي علي القالي ويكنى أبا الفتح واسمه جعفر دعاه خاطر وشده الحنين إلى موطن أبيه بغداد فلما حلَّ بها لم يستحسن الإقامة فيها وكرهها وكرَّ راجعاً إلى الأندلس وأنشد:

حَنَنْتُ إِلَى بَغْدَادَ حِينَ تَمَكَّنْتُ
رَأَيْتُ دِيَارًا يَبْعَثُ لَهُمْ لَحْظَهَا
فَوَلَيْتُ عَنْهُمْ عَائِداً غَيْرَ عَاطِفٍ
أَصُولِي، فَلَمَّا أَنْ حَلَلْتُ بِبَغْدَادٍ
وَقَوْمًا يَسُومُونَ الْعَرِيبَ بِأَحْقَادٍ
وَإِنْ كَانَ فِيمَا بَيْنَهُمْ نَشْءُ أَجْدَادِي

¹ فهرسة ما رواه عن شيوخه لابن خير الإشبيلي 422.

² المقصور والممدود 8-12.

³ ينظر: بغية الملمس للضي 232، ووفيات الأعيان 266/1، ونفع الطيب للمقري 84/2.

وَجُرْتُ عَلَى مِصْرٍ فَعَمَّضْتُ مَقْلَتِي

وَقُلْتُ بِعُفْفٍ: مَغْرَبَ الشَّمْسِ يَا حَادِي¹

ثم إن أبا علي نفسه ذكر ذلك صراحة في مقدمة كتابه المقصور والممدود حيث قال: «إذ لم أرى من ولد العباس للعلم طالباً، ولا في الأدب راغباً، ولا لأهله مشرفاً، ولا لحامله معظماً»². ثم إن هناك سبباً وجيهاً للرحلة فيما أظن، ويعد دافعا لها وهو حبّ لبنى أمية وولاءه لهم، فقد ذكر المترجمون أن جده محمد بن سليمان كان مولى عبد الملك سليمان بن مروان³، وهذه الولاءات دفعته للقدوم على مواليه ليجد عندهم الحظوة، وهم من دون شك كانوا على علم مسبق بمولاهم، ولعل دعوتهم له كانت من هذا المنطلق.

وليس القالي وحده من هاجر للأسباب المذكورة فقط، بل إن العديد من العلماء قبله وبعده هاجروا واستقروا في بلاد الأندلس، وأكثر من حل بها كان في القرن الرابع الهجري وهذا يدل على ما ذكرناه سابقاً من الاستقرار والرخاء الذي عم بلاد الأندلس في زمن الخليفة الناصر ولده المستنصر، وقد ترجم ابن الفريسي للعديد منهم في باب الوافدين من الغرباء الذي كان يعقده بعد كل ترجمة من تراجمه المرتبة على حروف المعجم⁴، وأيضاً نقل المقرئ في أندلسه في نفح الطيب أتى بترجم كثيرة مما أوردهم ابن الفريسي وزاد عليهم بعض تراجم التي فاتته مما وجده عند غيره⁵.

القصيدة:

أبو علي القالي في قصيدته هذه من حيث الألفاظ والمعاني والأسلوب عامة جاء بها على النمط القديم من الشعر، ويظهر جلياً تأثره بما حازه من علوم ومعارف في اللغة والأدب، واتباعه طريق الشعراء المحافظين في العصور التي قبله وخاصة في غرض المدح الذي نراه شبيهاً بقصائد مسلم بن الوليد والبحري وأضرابهما، ممن مدحوا الأفراد والخلفاء والقادة، بل شبيهاً بشعراء المديح في العصر الأموي أيضاً، وهذا يدل على شيء فإنما يدل على مذهبه الشعري القائم على اغتنائه بالألفاظ وجزالتها وبالتشبيه البين الذي لا كلفه فيه والاستعارات الغريبة ونحو ذلك مما ارتضاه القدامى من الشعراء، لكن كل ذلك ليس على إطلاقه، فقد قارب في بعض الأحيان مذاهب نخبة الشعراء المجددين من أمثال أبي تمام وخاصة في المبالغة والمغالاة، وهو مذهب تأثر به أيضاً المتنبي وابن هاني، وأمثالهما ممن غلب بديع شعرهم البديع مع كونهم لم يفارقوا عمود الشعر ولم ينبذوه.

بدأ القال قصيدته بقوله:

وَأَسْبَلْتُ عَبْرَةَ مَمْرُوجَةٍ بِدَمٍ
أَمْ مَشْرِقَ الشَّمْسِ تَبْعِي، عِشْتُ فِي دَعَةٍ
قُلْتُ: الْمُنَى، وَالَّذِي أَنْوِيهِ يَا سَكْنِي
إِنِّي أَخَافُ الرَّدَى مِنْ قَائِدٍ حَتَقِ
قَالَتْ: فَلَنْ يَبْلُغَ الْعُلَيَاءُ دُو حَرَرِ
أَوْ يَكْشِفَ اللَّيْثُ يَوْمًا عَنْ فَرَأْسِهِ
تَرَى الْإِمَامَ الرَّفِيعَ الْمَجْدِ وَالْهَمَمِ

قَالَتْ وَقَدْ قَرَّبُوا لِلْبَيْنِ أَيْنَقَهُمْ
أَمْ مَشْرِقَ الشَّمْسِ تَبْعِي، عِشْتُ فِي دَعَةٍ
قُلْتُ: الْمُنَى، وَالَّذِي أَنْوِيهِ يَا سَكْنِي
إِنِّي أَخَافُ الرَّدَى مِنْ قَائِدٍ حَتَقِ
قَالَتْ: فَلَنْ يَبْلُغَ الْعُلَيَاءُ دُو حَرَرِ
أَوْ يَكْشِفَ اللَّيْثُ يَوْمًا عَنْ فَرَأْسِهِ
تَرَى الْإِمَامَ الرَّفِيعَ الْمَجْدِ وَالْهَمَمِ

ثم يخلص الشاعر من مقدمته إلى ذكر مَنْ مِنْ أَجْلِهِ نَوَى الرِّحِيلَ وَشَدَّ الْمَطَايَا لِيُنَالَ الْحِظْوَةَ وَالْمَكَانَةَ الَّتِي تَلِيْقُ بِهِ، وَهُوَ يَقْصِدُ الْخَلِيفَةَ الْأُمَوِيَّ فَيَقُولُ:

تَرَى الْإِمَامَ الرَّفِيعَ الْمَجْدِ وَالْهَمَمِ

فَيَمِّمُ الْعَرَبَ وَاعْبُرْ بَحْرَ أَنْدَلُسِ

¹ المغرب في حلى المغرب لابن سعيد 208/1 - 210 ط دار المعارف، ومقدمة المقور والممدود ص 7.

² المقصور والممدود 4.

³ نص على ذلك أكثر من ترجم له منهم: الضبي في بغية الملتمس 232، وابن خلكان في وفيات 226/1، والقفطي في إنباه الرواة 240/1 وغيرهم.

⁴ يراجع كتاب تاريخ العلماء ورواة العلم بالأندلس لابن الفريسي بتحقيق السيد عزت العطار الحسين ط الخانجي.

⁵ ينظر نفح الطيب 51/2 وما بعدها.

فَصَارَ مَعْرُبًا شَرْقًا بِلَا رَغَمٍ
أَظَلَّ يَلْتَمُّ مِنْهُ مَوْضِعَ الْقَدَمِ

شَمْسًا تَجَشَّمُ مِنْ جُودٍ وَمِنْ كَرَمٍ
لَوْ صُوِّرَ الْمَجْدُ إِنْسَانًا لَهُ فَهَمٌّ

وهكذا يستمر الشاعر في إضفاء صفات الكرم والسماحة والمروءة وغيرها من الأوصاف على عادة الشعراء في ذكر ممدوحيه، وربما بالغ كغيره في تصوير الممدوح بصفات تشبه تلك التي رأيناها عند شعراء البلاط الأموي والعباسي من ذكر الفروسية والعز والآنفة وأنه شمس يحجب أضواء الآخرين وأنه حاز مجد السابقين واللاحقين إلخ.

لكن ربما فطن أبو علي لتلك المبالغة والمغالة في ذكر تلك الأوصاف، وبما أنه معدود من رجال العلم وتأبى صفات أهل العلم عن الانغماس مع كبار الشعراء المداحين والعوام من طلاب الحاجات، ولكيلا يظهر بمظهر مشين أو يوحي بأنه جاء للكسب والعطاء ونيل الجوائز بل كان مجيئه للعلم ونشره، ولخدمة الدين وأهله، يحاول أن يصور قدوته على الخليفة - مع حذره - لأجل ما سمعه من أوصاف النبل والشهامة في الخليفة وحبه لأهل العلم وخدمته للإسلام، وجهاده في سبيل الله فيقول مستدركاً:

فَجَرَّأْتُني عَلَى مَا كُنْتُ أَحْذَرُهُ أَنْبَاءُ هَادٍ لِدِينِ اللَّهِ مُتَتَزِمِ
كَتَشَّرَ رَوْضِ غَدَاةِ الدَّجَنِ ذِي زَهْرِ وَعَرَفَ مِسْكَ أَتَى لِلْبَحْرِ فِي اللَّطَمِ

مراحل الطريق إلى الأندلس:

بدأ الشاعر كعادة الشعراء بوصف راحلته ببعض الأوصاف المعروفة، كوصفها بالناجية وبالغیرانة، وبأنها من نسل عريق، ويشبهاها بالفحل البازل في القوة وشدة التحمل، ويصف مشيها السريع وتباعد خطواتها ومرورها مرور الرياح، وأحياناً يصف سرعتها بأنها تشبه البرق.

وترقل إرقالاً تشق به المهامه والقفار فيقول:

حَتَّى ارْتَحَلْتُ عَلَى وَجْنَاءِ نَاجِيَةٍ عَيْرَانَةٍ أَجْدٍ كَالْبَازِلِ الْقَطِمِ
حَرْفٍ مُذَكَّرَةٍ قَوْذَاءَ دَعْلَبَةٍ تَفَرَّقُ الْأَكَمَ بِالْإِرْقَالِ وَالسَّهَمِ
كَالرَّمْحِ كَالْبَرْقِ لَا بَلَّ لَيْسَ يُدْرِكُهَا طَرَفٌ حَدِيدٌ إِذَا تَخَدَّى عَلَى اللَّقَمِ
تَكَادُ تَخْرُجُ مِنْ إِهَابِهَا مَرَحًا إِذَا حَذَوْا بِاسْمِ ذِي الطَّاهِرِ الْعَلَمِ

وفي قوله: (تكاد تخرج من إهابها مرحاً) صورة بديعة وجميلة قلما نجدها عند معاصريه من الشعراء. ثم في أول ذكره لمراحل الطريق بدأ من أرض بابل وهو من دون شك يقصد بغداد ولم يكن وحده في الرحلة بل في رفقة قافلة، ربما كان مقصدهم الأندلس بدءاً، مثلما هو ينوي ذلك، ولا شك بأن الرحلة من أرض العراق وهي شاسعة وخاصة أنها المرحلة الأولى وتقتضي الاستعداد التام لقطع البادية المجاورة لأطراف السماوة إلى بادية الشام وهي — وقفار قلما تجد فيها الأنيس إلا من بعض من يقطنها أوقات الخصب، ولذلك وصفها بقوله: متلفة للقوم و النعم وأن الدليل يحار فيها، وقد استغرقت الرحلة في هذه المرحلة أربعة عشر يوماً ذكر فيها محطتين هما: هيئت وتدمر، قال:

مِنْ أَرْضِ بَابِلٍ أَطْوَى الْبَيْنِ مُعْتَرِضًا جِئِنَ السَّرَابِ بِهَا يَغْلُو عَلَى الْأَكَمِ
مَا يَنْقَضِي مَهْمَةٌ إِلَّا نَعْنُ لَنَا بَيْدَاءُ مُنْثَلِفَةٍ لِلْقَوْمِ وَالنَّعَمِ
يَحَارُ فِيهَا إِذَا رَمَضَاؤُهَا وَقَدَّتْ بِهَا عَلِيمٌ بِسَوْمِ الثَّرْبِ ذُو هَمِّ
تَرَى الرِّجَالَ جُنُوحًا فَوْقَ أَرْحُلِهِمْ مِنْ جَهْدِ سَوْرِ الطَّلَى مَرْضَى بِلَا سَقَمِ

قوله: (ترى رجال جنوحاً) ويقصد أنهم مائلون وهم على رواحلهم من التعب والنعاس يغالب عيونهم، وأجسادهم تكاد تسقط من على الرواحل.

لَا يَنْبُسُونَ حَدَارَ الْمَوْتِ مِنْ ظَمًا فَصَارَ بَيْنَهُمُ الْإِيمَاءُ كَالْكَلَمِ

أي: هم سكوت ولا يكلم بعضهم بعضاً حتى لا يعطشون، وإذا اقتضى الحال مخاطبة بعضهم بعضاً أومأوا إيماءً.

طَوَّرَ بِتَدْمُرِ دُو شَيْحٍ وَدُو نَمَمٍ
بَانَتْ دِمَشْقُ مِنَ الْأَجْبَالِ وَالْأُطَمِ

فَبَعْدَ عَشْرِ أَجْرُنَا هَيْتَ، لَأَحَ لَنَا
وَبَعْدَ عَشْرِ قَطْعِنَا ثُمَّ أَرْبَعَةَ

وعندما لاحت دمشق من بعيد حثهم الدليل على سرعة الوصول إليها مع ما بهم من تعب فما كان منهم إلا مطاوعته خاصة بعد رؤيتهم نهر بردى:

مَجَّبَتْ صَحَابِي لَمَّا أَبْصَرُوا بَرْدَى حَتَّى وَصَلْنَا وَشَارِي الرَّاحِ لَمْ يَنْمَ

واقترح عليهم القالي أن ينزلوا في الخان، وأخذ في وصف نزولهم واستقبال من كان من الخان لهم وهو غلام يبدو أنه كان حسن الوجه فلذا خصّه القالي بأبيات يتغزل فيها بذاك الفتى، ويصفه بالرشا تارة، وبالظبي تارة أخرى، وشبه وجهه بالبدر وقوامه بخوط البان وكأنه جارية، ثم بدأ بعدها في وصف الخمر ومجلسها في ذلك الخان

على عادة الشعراء قديماً وما تلبس بشيء من ذلك في الحقيقة ولذا نراه يقول:
لَمْ أَتِ فَحْشًا وَلَمْ أَهْمُ بِمَعْصِيَةٍ هَيْهَاتَ! مَا كَانَ قَطُّ الْفَحْشُ مِنْ هِمَمِي

مغادرة دمشق:

لم يذكر لنا القالي شيئاً عن دمشق ومعالمها سوى ذلك الخان الذي نزل به، وهذا يدل على أنه لم يقيم بها، بل ارتحل بعد استراحة يوم أو يومين، وهو شيء ليس بمستغرب في تلك الفترة؛ فدمشق حينها في حالة مضطربة، وقد تحول مركز الشام إلى حلب حيث كان سيف الدولة يقيم فيها، وكان أكثر أهل العلم والأدب يوفدون على حلب للقاء سيف الدولة ونيل الحظوة عنده، ولم يقصر سيف الدولة مع أحد منكم ممن جاء مادحاً أو زائراً أو مستأثراً أو جاء ليهدي إليه كتاباً أو شيئاً ينال استحسانه، ثم إن حلب نفسها لم تسلم بعد ذلك من الفتن والاضطرابات، فما تكاد تستقيم الأوضاع برهة من الزمن حتى ينقض عليها الأعداء أمنها ودعتها، مرة من جند الخليفة، ومرة من أعراب البادية، وأخرى وهي أعنفها - صراعهم مع الدولة البيزنطية، وهذا أثر في عموم معاقل آل حمدان كالموصل وحمص وديار بكر وغيرها مما كانت تتبع الحمدانيين.

وعلى كل حال فإن القالي لم يعزم بدءاً على الإقامة في بلاد الشام بل أثر أن يمضي إلى مقصده، وفي أثناء ذلك يذكر لنا إناخته في (أرض سلم) و(الجفار) ليصل إلى مصر بلاد الأهرامات:

ثُمَّ ارْتَحَلْنَا نَعْدُ السَّيْرَ مِنْ بَرْدَى حَتَّى أَنْحَنَّا الْمَطَايَا فِي أَرْضِ سَلَمٍ
ثُمَّ الْجَفَارُ وَمَا نَبْغِي بِهَا سَبَبًا إِلَّا السَّبِيلَ إِلَى مِصْرَ إِلَى الْهَرَمِ

النزول بمصر والإقامة بها:

لم يذكر القالي في قصيدته أنه أقام بمصر، ولم يذكر أحد من المترجمين أنه أقام بها سوى القفطي في ترجمته حيث نعتة بقوله: (نزول مصر)، ولعله أقام برهة للإعداد لبقيّة رحلته الطويلة، لأن قطع المسافة ما بين مصر والقيروان أمر لم يكن بالهين في ذلك الوقت؛ فلا بد من الإعداد جيداً والتزود بما يحتاج إليه واختيار الرفقة المأمونة، والسؤال عن الطريق ممن قدم من بلاد المغرب أو الأندلس إلى مصر، وهذا يتطلب وقتاً ربما لأشهر، وهو ما درج عليه كل من أراد العبور إلى بلاد المغرب في تلك الأوقات؛ لأن أرض برقة وصحراء سرت كانت موحشة لا يوجد بها عمران، وكذا بعض نواحي طرابلس لا تخلوا من مخاطر قطاع الطرق وبعض الأعراب الذين ينزلون البادية لجمع قوتهم بالسلب والنهب، وهذا الأمر أكده أبو علي نفسه لما ذكر سرت وقابس في قصيدته.

وهنا يجب التوقف قليلاً حول ما ذكره محقق كتاب المقصور والممدود من أن القالي أخذ عن أبي جعفر أحمد بن عبد الله بن قتيبة أثناء نزوله مصر وهو في طريقه إلى بلاد الأندلس، وأن روايته عن أبي جعفر

بن قتيبة الواردة في كتب الفهارس والطبقات وفي كتب أبي علي القالي نفسه تعزز ذلك،¹ وهذا كله وهم لم يفتن له المحقق، لأن ابن قتيبة توفي سنة 322 هـ، أي قبل رحلة أبي علي بسنوات، ولم يكن لأبي علي رحلة إلى مصر قبلها، وعليه فإن أخذ القالي عن أبي جعفر كان في بغداد وليس في مصر، لأن ابن قتيبة بغدادى الأصل وإنما قدم مصر لتولى القضاء وبقي سنة ثم عزل ولم تمض أشهراً حتى توفي كما ذكر مترجموه، ولذلك فإن ابن قتيبة أحد شيوخ القالي البغداديين الذين يروي عنهم القالي كأبن دريد وأبي بكر بن الأنباري وابن السراج وغيرهم، وكان أبو جعفر يروي كتب أبيه فأخذ عنه شيوخ بغداد ومصر تأليف والده ككتاب عيون الأخبار والشعر والشعراء وأدب الكاتب وغيرها، وقد رواها القالي وسمى جملة منها في كتبه.²

العبور إلى القيروان:

يقول القالي في ذكر سيرته من مصر نحو القيروان:

حَتَّى إِذَا صِرْتُ فِي سِرِّ وَقَابِسِهَا
فَجَاسَتْ النَّفْسُ خَوْفًا مِنْ مَتَالِفِهَا
قُلْتُ: اصْطَبِرْ لَأُمُورٍ أَنْتَ تَعْلَمُهَا
فَالْقَيْرَوَانُ حَسِبْتُ الْمَوْتَ مُخْتَرِمِي
وَاسْتَشَعَرَ الْقَلْبُ دُعْرًا لَيْسَ بِالْحُلْمِ
تُبْلَغُ مِنِّي النَّفْسُ أَوْ تَنْوَى وَلَمْ تَحِمِ

وإذا ما نظرنا إلى المسافة ما بين مصر والقيروان نجد أنها كبيرة تحتاج إلى محطات كثيرة للنزول واناخة الإبل، لكنه لم يذكر لنا سوى سرت وقابس ولم يذكر طرابلس وهي في طريقه ولا بد أنه نزل بها، فقد كانت في تلك الفترة محطة مهمة للمسافرين، وحاضرة يقصدها كل من يريد المسير شرقاً أو غرباً.

ويبدو أن القالي قد بقي فترة في القيروان، فقد ذكر ابن خیر في مشيخته حين تسميه كتب أبي علي بأن بعضها قد زال عنه بالقيروان، وقد ذهب الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب في بعض ما كتبه من بحوث ومقالات بأن القالي قضى قرابة العام في القيروان باع في هذه الفترة بعض كتبه لأهل القيروان، وقد اعترض د. هريدي على ما ذكره الأستاذ حسن حسني بأن دعوى بيع كتبه مجرد افتراض ولا دليل عليه، ونحن هنا لا نريد أن نناقش ذلك، ولكننا نميل إلى ما ذكره الأستاذ حسن حسني لإلمامه بتاريخ تونس ومن أقام بها من الأعيان أو وفد لحضرته.³

وعلى كل حال فإن مقصد القالي هو الأندلس، ولذلك غادر القيروان إلى بجاية ومن ثم عبر إلى الأندلس سنة ثلاثين وثلاثمائة ونزل في المرية ودخل قرطبة في شعبان من السنة نفسها.⁴ لقول أبو علي:

إِذَا قَطَعْتَ عُبَابَ الْبَحْرِ مُعْتَرِضًا
نِلْتَ الْعَنَى وَالْمُنَى وَالنَّيْلَ مِنْ مَلِكٍ
فَنَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الشَّمْسَ مَطْلِيهَا
إِلَى الْإِمَامِ الْوَفِيِّ الْعَهْدِ وَالذَّمِّ
فِيَوْضُ رَاحَتِهِ أَمْنٌ مِنَ الْعَدَمِ
قَصْرٌ بِقُرْطَبَةَ الزُّهْرَاءِ بِلَادُهُمْ

بعد ذلك يشدوا القالي في مدح الخليفة وذكر صفاته وأفعاله في ثلاثة وثلاثين بيتاً من الشعر ختمها بقوله:

يَا بْنَ الْبُدُورِ إِذَا تَبَدُّوْ غِيَاهِبُهُ
وَقَدْ أَتَيْتُكَ أَبْغِي الْوَفْرَ مِنْ بَعْدِ
فَاقْلُلْ شَبَا ظَفَرَةٍ يَا خَيْرَ مُنْتَجِعٍ
وَأَنْعَمَ وَعَشْ سَالِمًا مَا مَجَّ مُعْتَمِرٌ
وَالْأَنْجُمُ الزُّهْرُ مِنْ مَرْوَانَ وَالْحَكَمِ
وَأَنْتَ لِلصَّفْوِ وَالْمَجْدِ التَّلِيدِ نَمِي
فَقَدْ بَرَّانِي حَتَّى صِرْتُ كَالزَّلَمِ
وَحَلَّتِ النَّيْبُ فِي حِلِّ وَفِي حَرَمِ

¹ المقصور والممدود (المقدمة) 43، وينظر مثلاً ترجمة أبي جعفر 23.

² ذكر ابن خیر مجموع روايات القالي عن شيوخه والكتب التي سمعها أو قرأها أو قرئت عليه بما لا نزيد عليه، فليراجع فهرسة ما رواه عن شيوخه لابن خیر في مواضع متعددة.

³ ينظر ما كتبه د. هرس في مقدمة المقصور والممدود 44، وفيه إحالة لما ورفات جاسم حسين عبد الوهاب.

⁴ إنباه الرواة 243/1-244.

ونقل المؤرخون مدى الاستقبال الذي حظي به القالي سواء عند وصوله إلى المرية أو عند دخوله إلى قرطبة، فقد كلف الخليفة ولى عهده عامل المرية ويدعى ابن رماحس باستقباله في وفد من الاعيان، يقول المقرئ: «وسار معه (أي ابن رماحس) نحو قرطبة في موكب نبيل، فكانوا يتذكرون الأدب في طريقهم، ويتناشدون الأشعار...»¹، ثم يذكر المقرئ قصيدة الشاعر هارون الرمادي في مديح أبي علي القالي حال وصوله الى حضرة قرطبة وهي قصيدة طويلة بدأها بقوله:

الشَّجُو شَجَوِي وَالْعَوِيلُ عَوِيلِي
سَلِمَتْ مِنَ التَّعْذِيبِ وَالتَّنْكِيلِ

مَنْ حَاكَمَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَذُولِي
فِي أَيِّ جَارِحَةٍ أَصُونُ مُعَذَّبِي

ويقول فيها ذاكراً القالي:

لِيَحُوزَهَا مِثْلِي بِغَيْرِ نَزُولٍ
مُتَعَاهِدٌ مِنْ عِلْمِ إِسْمَاعِيلِ
أُولَى مِنَ الْأَعْرَابِ بِالتَّفْضِيلِ
فِيهِمْ، وَحَازَ لُغَاتِ كُلِّ قَبِيلِ
نَزَلَ الْخَرَابُ بِرَبْعِهِ الْمَاهُولِ
وَتَعَرَّبَتْ فِي شَرْقِهِمْ بِأَفْوَلِ
رُورًا، وَلَا عَرَّضْتُ بِالتَّنْوِيلِ
لَمْ أَنْعِ غَيْرَ الْقُرْبِ فِي تَأْمِيلِي²

فَنَزَلْتُ فِي فُرْشِ الرِّيَاضِ، وَلَمْ يَكُنْ
رَوْضٌ تَعَاهَدُهُ السَّحَابُ كَأَنَّهُ
قِسْمُهُ إِلَى الْأَعْرَابِ تَعْلَمُ أَنَّهُ
حَازَتْ قَبَائِلُهُمْ لُغَاتٍ جُمِعَتْ
فَالشَّرْقُ خَالَ بَعْدَهُ، فَكَأَنَّهَا
فَكَأَنَّ شَمْسٌ بَدَتْ فِي غَرْبِنَا
يَا سَيِّدِي! هَذَا ثَنَائِي لَمْ أَقْلُ
مَنْ كَانَ يَأْمُلُ نَائِلًا، فَأَنَا أَمْرُو

وقد أورد جل من ترجم لأبي علي القالي حفاوة الاستقبال من الخليفة ولى عهده والعلماء ، وكبار رجال الدولة فمن دونهم ، ورتبت له أمور التدريس بجامع قرطبة الكبير ، وأخرجت له العطايا على ذلك وتوافد أهل العلم والطلبة على حلقاته التي كان يعقدها فيملي من حفظه تارة ومن كتبه تارة أخرى ، وأصبح أهل الأندلس يذكرونه في مجالسهم ويتسارعون للسماع منه والرواية عنه وداع ذكره في نواحي الأندلس فشددت الرحال إليه واضحى نجم الأندلس بدون منازع ، وفي ذلك يقول صاحب البغية في ذكر وصول أبي علي ((ووصل الي الأندلس سنة ثلاثين وثلاثمائة في أيام عبد الرحمن الناصر ، وكان ابنه الأمير أبو العاصي الحكم بن عبد الرحمن من أحب ملوك الأندلس للعلم ، وأكثرهم اشتغالا به وحرصاً عليه ، فتلقيه بالجميل وحظى عنده وقرب وبالف في إكرامه ، ويقال : إنه هو قد كتب اليه ورغبه في الوفور اليه))³.

Compliance with ethical standards

Disclosure of conflict of interest

The authors declare that they have no conflict of interest.

المراجع

- [1] إنباه الرواة للفظي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط المكتبة العصرية، بيروت 2009م.
- [2] بغية الوعاة للسيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2 دار الفكر 1979م.
- [3] بغية الملتبس للطبري، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب 2008م.
- [4] البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذاري المراكشي، تحقيق: تحقيق ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، ط3 دار الثقافة بيروت 1983م.
- [5] تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس لابن الفرضي، تحقيق: السيد عزت العطار الحسيني، ط2 المدني - الخانجي 1988م.

¹ نفع الطيب 1/84.

² نفع الطيب 1/85.

³ بغية الملتبس للضي 232 .

- [6] الحلة السيرة لابن الأبار، تحقيق: د. حسين مؤنس، ط2 دار المعارف 1985م.
- [7] الدخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام، تحقيق: د. إحسان عباس، ط1 دار الغرب الإسلامي، بيروت 2000م.
- [8] الصلة لابن بشكوال، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب 2008م.
- [9] طبقات النحويين واللغويين للزبيدي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2 دار المعارف مصر.
- [10] فهرسة ما رواه عن شيوخه لابن خير الإشبيلي، تحقيق: فرنشسكه قداره زيديه، ط مصورة - نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة 1997م.
- [11] كتاب أفل لأبي علي القالي، تحقيق: محمد الفاضل بن عاشور، ط مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله - تونس 1972م.
- [12] معجم الأدباء لياقوت الحموي، ط1 دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان 1991م.
- [13] المقصور والممدود لأبي علي القالي، تحقيق: د. أحمد هريدي، ط دار مرتبة الثقافة، بالقاهرة 1999م.
- [14] نفح الطيب للمقري، ط1 المطبعة الأزهرية المصرية 1302هـ.
- [15] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان، تحقيق: د. إحسان عباس، ط دار الثقافة، بيروت، لبنان.
- [16] يتيمة الدهر للثعالبي، تحقيق: مفيد قمحية، ط1 دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان 2000م.

Disclaimer/Publisher's Note: The statements, opinions, and data contained in all publications are solely those of the individual author(s) and contributor(s) and not of CJHES and/or the editor(s). CJHES and/or the editor(s) disclaim responsibility for any injury to people or property resulting from any ideas, methods, instructions, or products referred to in the content.